المأزق الوطني العراقي

بدعوة من جريدة "القبس" الكويتية، عقدت ندوة بعنوان "الوضع الراهن في الخليج وآفاق المستقبل"، على مدى يومين العاشر والحادي عشر من تشرين الاول 1998، في الكويت. تناولت الجلسة الاولى، الوضع الراهن في العراق: سياسيا واقتصاديا واجتماعيا. وكذلك احتمالات المستقبل وامكانية التغيير في ضوء :

أ- احتمال تجميد طويل للوضع الراهن في العراق من خلال بقاء النظام الحالي.

ب- احتمالات حصول تغيير وفي اي اتجاه.

ج- واقع المعارضة العراقية وقدرتها على التغيير.

تراس هذه الجلسة، الاستاذ طلال سلمان رئيس تحرير صحيفة "السفير" اللبنانية، وشارك فيها د. غسان العطية، والاستاذ ليث كبة (العراق) ود. اسامة الغزالي حرب والزميل عماد الدين اديب (مصر). والزميل توفيق ابو بكر (الاردن)، وكذلك اللواء الركن وفيق السامرائي المدير السابق للمخابرات العسكرية العراقية الذي تحدث الى المشاركين عبر "الستالايت" من لندن.

وفيما يلي مداخلة الدكتور غسان العطية الشفهية، وتعقيب الدكتور اسامة الغزالي حرب كما نشرتها صحيفة "القبس" بعددها المؤرخ 18 تشرين الاول 1998.

شكرا لـ "القبس" ولأسرة "القبس"، شكرا للحضور الكريم.

اتذكر اول زيارة لي لهذا البلد الطيب في عام 1963. وجئت هاربا ولاجئا من معتقلات بغداد واستقبلت في هذا البلد واستضفت في عام 1963. كنت هاربا من اضطهاد البعث واجد نفسي اليوم بين اخوة لي مرة ثانية يستضيفونني ويسمعون حديث عراقي يحن لبلده ويحزن لما يحدث فيه.

الموضوع الذي سأتكلم عنه، هو في الحقيقة حزين بالنسبة لكل عراقي وهو "المأزق الوطني العراقي".

العراق الذي لايجد عونا

انا معارض مستقل اقيم في بريطانيا واعمل في بريطانيا وكنت في شبابي من القوميين العرب وامامي استاذي الفاضل الدكتور احمد الخطيب اجد نفسي اليوم بعد ان كنت اناضل من اجل موريتانا والجزائر، وشج رأسي في تظاهرات من اجل الجزائر، وعملت في الموضوع الفلسطيني سنوات طويلة، ان هذا العراقي لا يجد العون الكافي من ابناء عمومته واخوته العرب.

اليوم اتحدث باسم العراق وكعراقي اكثر مما اتحدث باي اسم ،عربي او قومي، المأزق الوطني العراقي حسب رؤيتي ورؤية كثير من المستقلين، بعيدا عن الحقد، بعيدا عن تصفية حسابات قديمة وبعيدا عن ايديولوجيات هو كيف انقاذ العراق.

المفتاح هو تغيير القيادة

كثير من الدول مرت بحروب فاشلة وتأثرت بذلك ولكنها تمكنت ان تنهض، هكذا الحال بالنسبة لالمانيا، اليابان حتى الارجنتين في حرب فوكلاند، تمكنت ان تنهض وكان مفتاح النهوض هو في تغيير القيادة التي اوصلت شعوبها الى تلك المأساة.

يبدو ان الحالة العراقية كادت تكون الاستثناء، رغم كل المآسي التي تمت بقيت القيادة العراقية وهذا يعود برأيي الى التناقضات الاقليمية من جهة والى التناقضات الداخلية ضمن العراق والى فقدان البديل المقبول اقليميا ودوليا مما جعل من بقاء النظام خيارا شرعياً.

مع ذلك كان من الممكن لهذا النظام ان يبقى -واتكلم بشكل موضوعي- لو استفاد من الدروس، لو اتعظ من الدروس، لو اعاد النظر لوضعه من خلال الانفتاح والمراجعة، لكن مع الاسف النظام لم يستفد من الدروس ولم يتعظ بل على العكس اصبح هذا النظام غير قادر على انقاذ العراق بل اصبح مأساة لهذا البلد.

فشل النظام والمعارضة

من منطلق انقاذ البلد وليس من منطلق احلال حاكم مكان حاكم او حزب مكان حزب. المهم النظام غير قادر على انقاذ البلد. لكني من جهة ثانية وكعراقي اجد ان من تصدر للعمل السياسي المعارض من اخواني العراقيين فشل كذلك في ان يقدم البديل لانقاذ الشعب وبالتالي يكون مقبولا عربيا واقليميا ودوليا. وبالتالي ايضا فان مأساة المواطن العراقي اصبحت هنا نتيجة لفشل النظام وفشل قدرة المعارضة بتركيباتها القائمة على معالجة حالة الاحباط وحالة اليأس ليس هناك معين لهذا الانسان العراقي. هذه هي المأساة العراقية وهذا ما يحدث.

اقطاعية

من هذه النقطة نقول ماذا يمثل الوضع القائم بالنسبة الى بغداد؟

الوضع القائم هو انتصار لصدام، ولاي نظام دكتاتوري. الانتصار بالنسبة للدكتاتور هو البقاء في السلطة مهما كان الثمن. وعندما تصبح مصلحة الحاكم وحاشيته فوق اي مصلحة اخرى يتقلص الوطن الى اقطاعية ويتحول المواطنون

الى مجرد رعايا في خدمة الحاكم وهذا فعلا ما وصلنا اليه في العراق.

صك انتداب

الشيء الثاني - الوضع الراهن في العراق- هو بقبول النظام بالقرار 687 - ابو القرارات- نجد ان الوضع الراهن جعل العراق عمليا تحت الانتداب. من يقرأ تاريخ العراق . . كما سابقا في عهد الانتداب . . ولكن ذلك الانتداب كان ارحم علينا من الانتداب الجديد.

النظام، اي نظام، كان عليه بابسط مايمكن ان يتخلى ويتنحى ولا يتحمل مسؤولية التوقيع على مثل هذا الصك، صك مصادرة العراق واستقلال العراق وسيادة العراق الى الامم المتحدة او الى دولة اجنبية، لكن مع كل هذا وافق النظام على هذا الصك لانه وجد فيه حبلا لنجاته، اعطيكم مثلا على مأساة هذه القرارات القاسية، فهي مجحفة بحق العراقيين قبل ان تكون مجحفة للحاكم. ان ميزانية نشاطات الامم المتحدة في العراق تزيد عن كل ميزانية الامم المتحدة الاعتيادية هذه الميزانية التي تدين لها الولايات المتحدة ببليون دولار، لاتدفعها. فلكم ان تتخيلوا مأساة هذا العراقي في هذه العملية، العراق ليس دولة مابين نهرين وانما اصبح دولة بين نارين، الشعب العراقي بدلا من ان يفكر بالعمل ضد النظام صار يفكر بالهروب والخروج من العراق.

قرار النفط للغذاء

لقد وظف قرار النفط مقابل الغذاء لصالح النظام، وبات ورقة بيده. فأصبح المواطن لكي يستلم كمية من الغذاء يحتاج الى بطاقة تموين، فالعراقي الان يحتاج لانجاز اي معاملة الى ثلاث بطاقات بطاقة الاحوال الشخصية، بطاقة التجنيد، وبطاقة جديدة اسمها بطاقة التموين، وفي كل شارع هناك نقطة امن ترصد كل ساكن، من اين غادر ومن اين اتى؟ . . وبالتالي اصبحت هذه البطاقة اداة للارهاب، فالذي يقبض عليه او يغضب عليه يحرم من البطاقة. ارادوا ارهاب مجموعة من العراقيين في خانفين وكركوك والوسيلة كانت تهجيرهم الى منطقة اخرى وقطع ارزاقهم. بذلك تحول الحصار الى ورقة ظالمة بيد الحاكم في العراق.

الضغط والديمقراطية

انا من الذين انتقدوا منذ اليوم الاول سياسة الحصار، قلت ان الحصار لايسقط نظاما. الحصار اداة ضغط لكنها اداة ضغط على الانظمة الديمقراطية وحيث توجد قدرة على الضغط من قبل الشعب على الحاكم، لكن هذا في الانظمة الديمقراطية.

في جنوب افريقيا البعض كان عندهم شيء من الديمقراطية، لما فرض الحصار والمقاطعة عليهم شعروا ان عليهم ان يتنازلوا. لكن ما الذي يجعل صدام يتنازل اذا مات مليون او مليونان او ثلاثة وبالتالي فان الحصار قوى صدام ضد شعبه وباسم شعارات كثيرة تعرفونها، اضافة الى ذلك الان، الحصار بالمعنى القائم لم يعد مفيدا باعتراف الجهات الامريكية، وشخصيا ازور الولايات المتحدة ولا احد يقول بشكل رسمي ان الحصار سيسقط صدام.

ولكي يبقى النظام القابع في بغداد لايحتاج الى اكثر من اعانة مليون شخص من حاشيته ومن الحرس الجمهوري والخاص ويجعله في وضع طيب لكي يديم وضعه، اذن العراق بوجود الحصار وصدام ينهك العراق ويفتته، لم يعد يا اخوان امامكم شيء اسمه العراق الذي عرفتموه.

وربما يقول احدهم ان العراق اتعبنا واتركوه يتعب كما اتعب الاخرين. . يا اخوان لايمكن ان تعرفوا حقيقة ان اي انفجار يحصل في العراق لايسلم منه احد، وحتى الكويت التي اقدر مرارتها وعذابها مما حصل لها من العراق، اقول لها ان مستقبل العراق يؤثر عليك.

المحيط يريد صدام

لقد تعاملت اوروبا مع المانيا بعد سقوط هتلر، فانقذت المانيا لكي لاتتحول المانيا مرة ثانية الى المانيا مرتدة كما حصل بعد الحرب العالمية الاولى وادى الى مجى هتلر. النظام يوظف هذا الوضع لصالحه. . و استفاد من التناقضات الاقليمية مما ادى الى تحييد بعضها البعض. . ايران لاترغب بمجيء نظام بديل لصدام "امريكي" اللون وهذا لايناسبها وانا اتفهم ذلك، فبالنسبة لايران ابقاء الوضع القائم في العراق ضعيفا مستهلكا هو افضل من مجيء اخر غير معروف. سوريا تري ان اي تغيير عراقي يأتي بنظام موال لامريكا تهديدا لمصالحها وتطويقا لها. وباسم فلسطين وباسم مصالح سوريا هناك مصلحة للقيادة السورية بابقاء العراق على وضعه الحالي وهذا افضل من التغيير. وحتى الانفتاح التجاري الموجود حاليا بين العراق وسوريا هو لعبة سياسية ومناورة باوراق سياسية: كل واحد يريد ان يستخدم الثاني لمناورات هنا وهناك، لكن النتيجة النهائية بقاء الوضع القائم . . اتفهم ماتريده القيادة الايرانية او السورية لكن رجاءً لاتتحدثوا باسم الاسلام، فالاسلام الايراني لن ينقذ العراق، كما حديث سوريا باسم العروبة والقومية او البعث لاينقذ العراق، فالموقف السوري له حساباته الداخلية وافهمها كرجل سياسي ورجل علوم سياسية.

انا كعراقي ومع كل العراقيين نريد خلاصا لقضيتنا اما ان نغلفها بعباءة دينية او عباءة قومية او اي عباءة اخرى فهذا ليس حلا ولا يداوي الجرح العراقي.

تفتيت البلد

هنا نأتي الى المأساة الكبرى، النظام استطاع ان يفتت البلد، صحيح ان رقعة القاعدة السياسية للنظام تقلصت، العائلة الحاكمة تقلصت، حتى تكريت ضده، السنة ضده، العشائر ضد النظام. اربع محاولات انقلاب تمت ضد النظام، الجيش متذمر، اكثر من ثلث الجيش سرح، وضباط برتبة لواء صاروا سائقي تاكسي، العشائر فتتت، النظام اتبع نظاما اتبعته الدولة العثمانية بان يقسم العشيرة الى افخاذ فاذا لم يعجبه شيخ ما يحل مكانه شيخ اخر موال لصدام.

المجتمع كتركيبة يتعرض للتفكك، وحتى الحزب مرة يقدم ومرة يتراجع. ويذكر عن صدام قوله لميشيل عفلق "لا تلمني اذا اعتمدت علي عائلتي (هذا في 1979 بعد اعدام زملائه) لان الحزب تأمر علي". ولكن حتى العائلة الحاكمة لم تسلم، ولم يجد بأسا من قتل واعدام حتى الاقرباء اذا ما عارضوه.

الانقسام والمعارضة

ان المعارضات العراقية هي بدورها تعرض للتفتت، ويحزنني ذلك لان في النهاية هذا جرحي وان يجب ان اداوي نفسي، لا الامريكي سوف يساعدني ولا غيره، مع الاسف المعارضة العراقية عكست الواقع الانقسامي لمجتمعنا فأصبحنا نجد معارضة تقول انها عراقية ولكنها شيعية اولا، واخرى سنية وغيرها كردية. . وكل منهم يخشى بعضه البعض. فالكردي يقولها بصراحة ماذا يطمئننا عدم مجى بديل لصدام اسوأ منه. . نفضل صدام الضعيف على بديل قومي شوفيني يحكمنا. ولسان حال السني يقول: تريد الجيش يثور حتى يسلم الحكم لجماعة ايران؟ وفي الحقيقة ان السياسة الامريكية هي اول من خاطبت العراقيين كشيعة وسنة واكراد.

دعوة الى "العراقية"

من هذا المنطلق انا وغيري بدأنا ندعو الى "العراقية". . دعوة لاعادة البصمة العراقية، البعض وبسذاجة تصوروا ان الدعوة العراقية هي تخلي عن العرب والاسلام هذا غير وارد. ان لم اكن عراقيا جيدا لايمكن ان اكون عربيا جيدا، ولا يمكن ان اكون مسلما جيدا.

هذه حقيقة واقعية، انا ارتكبت اخطاء في السابق . . اهملت بلدي وحاولت ان احرر غيري، من لا يحرر بلده كيف يحرر غيره؟ هذه الحقيقة تبرز في المعارضة العراقية وتعبر عن حالة اليأس التي وصلت اليها حيث اصبح كل شيء مسموحا به باسم كراهية صدام وباسم المصالح الضيقة الى درجة وصل الامر ان بعض الاطراف العراقية

بدأت تتعامل مع اسرائيل، العراق الذي اخذ مواقف باسلة وقدم التضحيات من اجل فلسطين، يجد الان البعض من العراقيين باسم معارضة صدام وباسم مصالح ضيقة يتعاون مع اسرائيل.

ماذا تعني سياسة "الاحتواء؟

لقد تبنت الولايات المتحدة سياسة الاحتواء المزدوج. ماذا يعني الاحتواء المزدوج؟ انه خيار من خيارات واشنطن، على اساس انه اقل الخيارات تكلفة وضررا لها، والخيار باختصار هو وضع العراق في صندوق واحد شعبا وحاكماً، الشاة مع الذئب في صندوق واحد. عندما نقول الاحتواء فشل، يقول مارتن انديك مساعد وزير الخارجية الامريكية "من قال الاحتواء فشل، الاحتواء نجح، لقد نجحت الولايات المتحدة في حماية مصالحها ومصالح اصدقائها بشكل فعال من خلال سياسة احتواء العراق وايران". ولذلك يمكن القول ان الاحتواء حقق التالي:

1- ابقاء العراق ضعيفا معطلا غير قادر على تهديد جيرانه.

2- بقاء صدام في الحكم بعد ان وظف "كفزاعة" للآخرين والنكتة التي يقولونها ان الكويتي اخيرا صار ينام على وسادة امريكية ويحلم بكوابيس صدامية. فما هذا الوضع الذي وفرته له سياسة الاحتواء بالنسبة للكويتي؟

تعطيل دور العراق الاقليمي والعربي في ظل نظام الاحتواء، وصارت العقوبات ادات لتنفيذ الاحتواء. . لن ترفع العقوبات ما دام صدام في السلطة. . ولكن عندما يطالب البعض بالتخلص منه يرد الامريكان بعدم وجود البديل المناسب.

بهذا المعنى صار العراقي يطحن من نظام اناني ومستبد من جهة، ومن سياسة امريكية قصيرة النظر تحقق مصالحها من جهة اخرى. . ويطحن كذلك عربيا من انظمة عربية تفضل التعايش مع النظام مادام فيه خدمة لمصالح تجارية او حسابات ومعادلات سياسية.

وحتى في الكويت استغربت قول وزير كويتي: افضل لنا ان يبقى صدام ضعيفا على ان يأتي بديل اخر قوي لانعرفه ويحكم العراق.

لقد تجاوزنا ايها الاخوان مرحلة الاحقاد. . الان صار الوقت ان يكون هناك شيء من المحبة، شيء من الرحمة. . من مد اليد . . والا فطوفان العراق لايغرق العراقيين فقط وانما يغرق الاخرين فمن مصلحة ذاتية للعربي عليه ان يساهم بانقاذ العراق.

(الملف العراقي، العدد 83 - تشرين الثاني 1998)

⁂